مريم بجاوي
قسم الترجمة
كلية الآداب واللغات
جامعة الجزائر

العولمة والمسخ الثقافي

Résumé:

Mondialisation et acculturation

«La culture, c'est ce tout complexe qui comprend le savoir, la croyance, l'art, le droit, la morale, la coutume et toutes les autres aptitudes et habitudes acquises par un homme en tant que membre de la société.»

Cette citation de Tylor (1871) nous interpelle sur les contours définitoires du concept d'acculturation inscrit dans un contexte particulier, celui de la mondialisation.

Face aux bouleversements qui accompagnent la globalisation économique sous toutes ses formes (échanges, production, financement) ne nous acheminons-nous pas vers un gommage progressif des diversités culturelles et des particularismes propres à chaque culture ?

La situation que nous traversons aujourd'hui, rappelle celle assez récente de l'aliénationation culturelle dont a souffert l'Algérie pendant plus d'un siècle. De la diffusion des valeurs du modèle de développement occidental, nous subissons dès lors, des changements économico-socio-culturels imposés par une «américanisation» effrénée, induite par l'explosion des technologies de l'information et de la communication .

العولمة والمسخ الثقافي

ما هي المدلولات التي يحملها هذان المصطلحان ؟
وما العلاقة الموجودة بينهما ؟
من أي سياق تاريخي نشآ ؟

اسمحوا لي من أعلى هذه المنصة وقبل الدخول في صلب الموضوع أن أوجه أسمى عبارات الشكر إلى منظمي هذا الملتقى الذي لا تخفى على أحد أهميته عن كريم الدعوة وحسن الوفادة وأخص بالذكر الدكتور "جابر عصفور" الذي وفر لنا فرصة المشاركة حتى نكون بين ظهرانيكم في قاهرة المعز بدين الله.

– العولمة ؟ هذا المفهوم الحديث الرائج كل الرواج نستطيع وصف مظاهره العدة أو ما يبدو منها.ولا أظن، في عالمنا الحديث، أن هناك مصطلحا يصور ذوق العصر أكثر من هذا المصطلح الذي يدفعنا إلى التفكير والنقاش والجدل.كما أنه كان وراء ظهور أدبيات واسعة تتناول هذا الموضوع من كافة جوانبه. ويكفي أن نطلع على الكتب والمقالات التي تصدر تباعا حول هذا الاختصاص أو ما تزخر به مواقع الأنترنات من معلومات آنية عنه لنتأكد من أهميته.إن هذا المصطلح الذي يهز – حقا أو باطلا– أركان العديد من المجتمعات المعاصرة ويزعزع استقرارها.. سنتطرق،في عجالة إلى بعض تعاريفه ،هنا وهناك، لنطوف بعد ذلك ببعض الملامح التاريخية التي حملها المصلح منذ ظهوره.

1 – تعريف مصطلح العولمة:

ما هي العولمة ؟ أهي تيارا لأفكار جديدة ؟ أم أنها عبارة عن نظام عالمي حديث مسبق لمعطيات السياسة الجديدة التي هي نفسها ناجمة عن مجموعة من الانقلابات من كل طراز على رأسها انهيار الكتلة الشيوعية أي نهاية الحرب الباردة، انهيار جدار برلين وإعادة توحيد الألمانيتين، هذا فيما يتعلق بالسياسة إضافة إلى الثورات العلمية والتقنية التي غيّرت تماما الواجهة الاقتصادية التي استبدلت بفضل تفجير أجهزة الإعلام والاتصال (السلك — الأقمار الاصطناعية — الفيديو — صناعة الحواسب الصغيرة — الانترنيت...):

أ– إذا عدنا إلى Webster'S(طبعة عام 1991)، فإننا نجد أن مصطلح العولمة يعني إعطاء شيء ما صبغة عالمية وتوسيع مجال تطبيقه أو تحميله بعدا عالميا.

ب– أما المختص في الاقتصاد "جون وليامسون" فإنه يرى أنه إذا كان مفهوم العولمة يحمل تسمية "مذهب واشنطون" فذلك لا يعني أن العولمة ظهرت في كنف الدولة

الأمريكية، وإنما لأنها جاءت من مؤسسات اقتصادية عالمية قائمة في هذه المدينة مثل صندوق النقد الدوليFMI، البنك العالمي، البنك الأمريكي للتنمية..

أما فيما يتعلق بالتعاريف التالية المأخوذة من كتاب "العولمة فيما وراء الأساطير" الذي يحتوي مجموعة من المقالات خاصة بهذا المفهوم، وكلها تضع، كما هو الشأن بالنسبة "لوليامسون"، الظاهرة المعرفة على أساس المحيط الاقتصادي فقط وبالتالي فإنها تعيد إلى التقسيم الاقتصادي السياسي الأساسي لعالمنا المعاصر.وبما أن الاحتدام الذي كان سائدا ربين الرأسمالية والاشتراكية قد أدبر وولّى، فهذا المفهوم للعولمة في مظهره الاقتصادي والذي يمكن أن نطلق عليه تسمية: الرأسمالية المعاصرة، يدفع بنا إلى التساؤل حول الظروف التاريخية لبروز هذه الكلمة.

2 – العولمة لفظ حل محل الإمبريالية الرأسمالية:

بالنظر إلى أن التنافس بين الرأسمالية والاشتراكية لم يعد قائما، فأن الدول الرأسمالية المستغلة المتقدمة والتي تكون ما يسمى بالمعسكر الغربي تسعى إلى تبني التقسيم الاقتصادي السياسي للعالم وفق مخططات تخدم بالدرجة الأولى مصالحها الخاصة.

وهذا الوضع شبيه بالفترة الاستعمارية وليس هناك من يستطيع نفي ذلك إذ أنه وكما لا يخفى على أحد، فإن الدول المستعمرة كانت خلال الحقبة الاستعمارية تنهب الخيرات التي كانت تزخر بها اغلب الدول المتخلفة بآسيا وأفريقيا لصالحها ولصالحها فقط، وبذلك فإنها شكلت النواة الأولى للنظام الإمبريالي..

فبالنسبة إليّ ورغم عناصر التباين التي اعتبرها أكثر خطورة، فإن العولمة ليست إلا حلقة متوالية منطقية في هذا السجل ومظهرا جديدا للإمبريالية حتى تديم الاستراتيجية الاقتصادية المتمثلة في المحافظة على التباين بين الدول الغنية والفقيرة، الغالبة والمغلوبة، المستثمرة والمستثمرة، المصنعة والمتأخرة وهكذا ابتكار أشكال جديدة من اشكال السيطرة والهيمنة، لذا كان لابد من التفكير في إيجاد مصطلح جديد لا يحمل خلفيات سلبية مثلما كان الحال بالنسبة للإمبريالية وهو اللفظ الذي اضمحل استعماله وأضحى في طريق الانقراض من المؤلفات و المحاضرات ومن مختلف الأدبيات العالمية والخطب اليومية ليترك المكان لما هو أكثر حضارة وعالمية.فعندما يدعم اللساني رجل الاقتصاد فإن بعض الألفاظ تبدو وأخرى تزول، ذلك لأنه لو كانت الكلمات حية فإنها ستؤول إلى الانقراض دون شك..

3 – عولمة ثقافية أم تداخل في الثقافات؟

إذا كانت الخريطة السياسية العالمية قد عرفت تغيرات عميقة خاصة على الصعيد الاقتصادي فإن التحولات في المجال الثقافي اقل أثرا رغم ما عرفته الثقافات من نشاط تطور وتغيير.

لذا إذا كانت الإنسانية لا تستطيع التملص من سيطرة العولمة لأنها مضطرة إلى التكيف مع الاتجاهات الاقتصادية العلمية والتكنولوجية للنظام العالمي الجديد، فعلى العكس من ذلك فإن كل شعب يستطيع إثبات ثقافته الخاصة واستعمالها كجدار وواقي يقف حجر عثرأمام هيمنة العولمة ومراقبة انعكاساتها.

الثقافة والمسخ الثقافي:

مفهومان غير متناقضان، فإذا كان لمفهوم الثقافة جذور عميقة وقديمة، فإن مفهوم **المسخ** الثقافي، على العكس من ذلك، حديث النشأة كما هو حال مصطلحي الإمبريالية والعولمة.

– ما هي الثقافة أو ما معنى الثقافة من وجهة نظر الانتربولوجيا ؟

يعطي "منتسكيو" في محاولة رائعة ضمن "روح الزمان" التعريف التالي: جسم معقد المعايير، رموز، أساطير، صور تعيش في كيان الفرد فتهيكل غرائزه وتوجه انفعالاته.."

هذه الثقافة تضاف إلى ثقافات كانت موجودة مثل الثقافة ذات النزعة الإنسانية، الثقافة الدينية أو الثقافة الوطنية.

نستطيع التذكير بما سبق وأن أشرنا إليه سالفا فيما يتعلق بالكلمات: إنها تبدو لتجيب على بعض التساؤلات وعن بعض المشاكل التي تطرح خلال مراحل تاريخية محددة وفي مجالات اجتماعية وسياسية خاصة.إن إطلاق التسميات على الأشياء يعني أننا نخلق مشاكل ونحلها في آن واحد بطريقة ما. لو أن لفظ ثقافة في بداية الأمر يتماشى والثنائية الثقافة الغربية الثقافة البدائية، فإنه سيحمل وبفضل الأنثروبولوجية الأمريكية مدلولات جديدة. ولكن كان لابد من انتظار ظهور دراسات حول الظواهر التي أطلق عليها تسمية **المسخ** الثقافي لفهم آليات الثقافة بشكل أفضل.

يعد "هرسكو فيتس" أحد أهم واضعي مصطلح **المسخ** الثقافي والذي بعد أن قام بدراسات حول هنود أمريكا (1928) اتجه نحو تحليل ثقافة السود المنحدرين من الأصول الإفريقية. وقد ساهم بذلك في الإقرار بأن وقائع الانصهار الثقافي وقائع متأصلة وجديرة بالاهتمام شأنها في ذلك شأن الوقائع الثقافية الصرفة أو التي يفترض أنها كذلك...

فمفهوم الثقافة من الزاوية الانتروبولوجية هو الذي سمح للعلوم الاجتماعية من ضبط وحدة الإنسانية في تشعباتها المختلفة...

بينما قبل اليوم كان كل تهجين ثقافي عبارة عن ظاهرة مشوهة "للصفاء الأصلي"، وبالتالي فلا بد من لفضه ورفضه. حدث هذا خلال فترة طويلة عندما كنا نطابق بين لفظ المسخ الثقافي والإستيلاب الثقافي عندما نريد تقديم عرض عن حال ثقافة "ا" ترزخ تحت نير سيطرة ثقافة "ب". وهذا يعيدنا، طبعا، إلى تاريخ الاحتلال الاستعماري للدول الآسيوية والإفريقية.

لقد سمح الكلام آنذاك حول المفهومين بظهور كمٍّ هائل من المؤلفات والى الوصول الى نتيجة مفادها أن المسخ الثقافي جاء نتيجة مباشرة للإمبريالية الثقافية. وقد اكتسى هذا الموضوع أهمية بالغة بالنسبة للمثقفين السود خاصة (الحركة الزنجية) لمسلمة أساسية ضمنية للسيطرة الثقافية.

إذا كانت فعلا هذه الثقافات قد عاشت خلال هذه المرحلة تحت ضغوطات إلى حد الاختلاف فإن الفضل يعود إليها في تكوين وحدة الشعب الذي كان يعيش تحت السيطرة.

وكمثال على ذلك أذكر حال بلادي الذي عان من احتلال بغيض دام قرن وأكثر من ربع قرن من الزمن من الاستعمار الفرنسي والذي ترك بصمات عريضة على المجتمع الجزائري غير أن ثقافته وإن تدنت فإنها بقت واقفة رغم أهوال الحرب فإن وقائع الثقافة كونت قوة ثابتة وكانت فخا في وجه الإستيلاب.وفي حالات كثيرة، فإن المستعمر وعندما أيقن من فشل مهمته حاول إعادة الاعتبار لبعض المظاهر السلبية لثقافة الأهالي (الطرقية، الاستئصال في بعض الدول الأفريقية...)

فما هو الحال اليوم ؟ هل العولمة هي أيضا عملية إعادة تحديد مسار العلاقات ما بين الثقافات ؟هل نتجه مثلما يقال عادة نحو توحيد الشكل وتمييع الثقافات الوطنية أو المحلية في اتجاه خاطىء تتقاذفه عمليات مد وجزر وشبكات الاتصال ؟

يعمل النظام الجديد للثقافة المسماة بالثقافة "الجماهيرية" يعمل وفقا لمعايير الإنتاج مختلفة تمام الاختلاف مرتبط ،بشكل محض، بمقتضيات المنطق التجاري للأسواق الجماهيرية.الأسواق تعمل بعناصر بشرية والعلاقات التي تربطهم لا تقل أهمية عن السلع التي يتبادلونها.لا ينبغي أبدا جعل هذه السلع تشوه الروابط بكلمات تعرقل المجهودات البشرية،بل الكلام عن تعبئة شاملة من أجل بناء عالم جديد لا نتلكم فيه أبدا عن الشمولية بل عن الترابط و التعاون الثقافي والتعدد الثقافي.

في سياق غير واضح المعالم، صعب كان من الضروري مناقشة السؤال دون تحيز دون غضب حق تجنب الاستسلام وذلك بتوسيع فكر بناء حول التشعب الثقافي، النقاش بين الحضارات والتعاون العالمي في المادة الثقافية.

المراجع

د.أحمد درويش: تحديات الهوية العربية بين ثقافة العولمة وعولمة الثقافة، مجلة المسلم المعاصر، العدد 98، ص6، القاهرة، ديسمبر،2000م

- د. بركات محمد مراد: العولمة والثقافة ...هواجس وآمال، المجلة الثقافية، العدد 55/54 ص10، عمان، الجامعة الأردنية 2002م.

- د.خلف، سليمان نجم: العولمة والهوية الثقافية، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد 61، الكويت،1998 م.

- د. فؤاد زكريا: خطاب إلى العقل العربي، ص43-48، الكويت، 1985م.

- د.نادي كمال عزيز: الإنترنت وعولمة التعليم وتطويره، مجلة التربية، العدد 133 ،134، ص250، الدوحة/قطر، يونيو-سبتمبر،2000م.ذ

Références bibliographiques :

Gilles Verbunt: La société interculturelle :vivre la diversité humaine. Edition Le Seuil,2001

René Kaës(collectif): Différences culturelles et souffrances de l'identité. Collection Dunod ,1998

Patricia EM Lorcin: Kabyles, Arabes, français : identités coloniales. Editions PULIM, 2005

Jean Déjeux : La culture algérienne dans les textes. Publisud, 1995.